الفصل الثالث

الانتقام من أجل الحرب

فى ١١ اكتوبر عام ١٩٥٣، كتب وزير الخارجية، ورئيس الوزراء القادم، فى يومياته إنه ذهب لمقابلة بن زفى، رئيس الدولة:

أثار بن زفى، كالعادة، قضايا ملهمة... مثل إن كان لدينا الفرصة لاحتلال سيناء؟ وكم سيكون الوضع رائعًا إن بدأ المصريون هجومًا نستطيع أن نهزمه ويتلوه غزو هذه الصحراء! . ولقد أبدى خيبة أمل عندما أبلغته أن لا يبدو أن المصريين سوف يسهلون علينا مهمة الاحتلال من خلال تحدى مستفز من جانبهم. (١١ أكتوبر ١٩٥٣، ٢٧).

فى اليوم التالى، أبلغ بن جوريون شاريت أن بنحاس لافون، وهو أحد المؤيدين المتشددين لسياسة الانتقام، سوف يحل محله كوزير دفاع، وأنه على وشك تعيين موسى ديان رئيسا للأركان.

obeikandl.com

«فى الحال قلت إن موسى ديان هو جندى فقط فى زمن الحرب فحسب، ولكن، فى زمن السلام فهو رجل سياسة. والتعيين يعنى (تسييس) مقر القيادة. إن القدرات الفائقة للقائد الأعلى الجديد فى ونسج المؤامرات والمكائد سوف يطرح العديد من التعقيدات. ولقد سلم بن جوريون بحقيقة تلك التفسيرات، بل وأضاف بأن ديان نفسه وصف نفسه بتلك الطريقة، وسعى لان يجرد نفسه من أهلية المهمة، ولكن لا بأس، سيكون على مايرام. لقد غادرت المكان وقلبى حزين. (٢٩ أكتوبر ١٩٥٣).

اعتبر شاريت المناخ الدولى فى ذلك الوقت غير موات لإسرائيل: فقد قررت الولايات المتحدة لتوها إمداد سوريا والعراق بالسلاح، وتسليح مصر بعد فترة وجيزة من توقيع اتفاقية منطقة القناة. وذلك فضلاً عن أن انتهاكات إسرائيل المستمرة لمطالب الأمم المتحدة بوقف تحويل مياه نهر الأردن والالتزام بخطة جونسون، كانت تتسبب فى تزايد مخاوف العواصم الغربية. فقد غذى الغرب الأمل فى أن الاتفاق الإسرائيلى العربى حول تحويل مياه نهر الأردن، إن تم التوصل إليه وتطبيق الاتفاق، سيصبح حجر الزاوية لاتفاق أوسع يمكنه القضاء على التوتر المعادى للغرب المتزايد فى المنطقة[٢]. حسب قائد المراقبين التابع للأمم المتحدة، الجنرال الدنمركى فاجين بينيك، «يعمل الإسرائيليون، ولا يزالون يعملون فى الأراضى العربية. نحن [الإسرائيليين] نعمل على تغيير الوضع استراتيجيّا». (١٥ أكتوبر ١٩٥٥، ٣٩) ويعلق شاريت بقوله إن هذا عمل مخجل:

«لقد قمت عدة مرات بالتحقيق، وكل مرة كانوا يؤكدون لى بوضوح أنه لم يتم لمس أى من الأراضى العربية. بعد أن أخبرنى بينيك... أنه ثبت له أن عملنا بدأ على أرض عربية... قمت مرة أخرى بمساءلة أمير [رئيس قسم الأعمال المائية] الذى أقر الآن بالحقيقة... وهكذا جعلونى أبدو كاذبًا أمام العالم أجمع!» (٣١ أكتوبر ١٩٥٥، ٣٢)

خوفا من أن تثير المبالغة فى العنف الإسرائيلى فى تلك الفترة، أزمة مع الغرب، حاول شاريت وقف العملية الانتقامية فى قبية، والتى صدق عليها بن جوريون عشية توجهه إلى العطلة، قبل اعتزاله الرسمى. وأشار إلى أن الحادث الصغير الذى وقع عند الحدود، والذى كان سوف يتخذ كذريعة للتخطيط لهجوم على قرية الضفة الغربية، أدانته الأردن علانية، وأن ممثلى الأردن فى لجنة الهدنة المشتركة وعدوا بأن يعملوا على ألا تتكرر مثل تلك الحوادث.

قلت للافون «إن هذا [الهجوم] سيكون خطأ خطيرًا»، وذكرته، بالإشارة إلى أحداث سابقة مختلفة، بأن الأعمال الانتقامية لم تثبت أبدًا «أنها تحقق الهدف الذى شنت من أجله» . ابتسم لافون.. وتمسك بفكرته.. قال: « إن بن جوريون لا يشاركنى الرأى». (١٤ أكتوبر ١٩٥٣، ٣٧)

«وفق الأنباء الأولى من الجانب الآخر، تم تدمير ٣٠ منزلاً فى قرية واحدة. هذا العمل الانتقامى لم يسبق له مثيل فى حجمه وفى قوة الهجوم المستخدمة. ظللت أسير فى حجرتى ذهابًا وإيابًا وأنا بلا حول ولا قوة، أشعر بكآبة كاملة بسبب عجزى... لقد كنت مرعوبًا من التفاصيل التى استمعت إليها فى إذاعة رام الله عن تدمير القرية العربية ـ عشرات المنازل دكت وسويت بالأرض، وعشرات الأفراد قتلوا. يمكننى أن أتخيل العاصفة التى سوف تهب غدًا فى العواصم العربية والغربية». (١٥ أكتوبر ١٩٥٣، ٣٩)

«يجب أن أؤكد هنا أننى، عندما اعترضت على العملية لم أكن أشك، ولو من بعيد، فى وقوع حمام الدم هذا. كنت أظن أننى أعترض على إحدى تلك العمليات التى أصبحت روتينًا فى الماضى. ولو كنت شككت، حتى من بعيد، فى وقوع مثل هذه المجزرة، لكنت أقمت الدنيا وأقعدتها». (١٦ أكتوبر ١٩٥٣، ٤٤)

«والآن يريد الجيش أن يعرف، كيف سنقوم نحن [وزارة الخارجية] بتعليل القضية. وفى لقاء مشترك ضم مسئولين من الجيش ووزارة الخارجية، اقترح صموئيل بندور أن نقول إن الجيش ليس له صلة بالعملية، ولكن سكان القرى المجاورة، هم الذين قاموا بالعملية بأنفسهم لأنهم كانوا مدفوعين بغضبهم بسبب أحداث سابقة ويسعون للانتقام. مثل تلك الصيغة سوف تظهرنا بمظهر ساخر: أى طفل سيقول إن تلك العملية هى عملية عسكرية». (١٦ أكتوبر ١٩٥٣)

«قام يهوشافاط هاركابى [مساعد رئيس المخابرات العسكرية فى ذلك الوقت] بالإبلاغ عن تحركات للقوات الأردنية من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية فى اتجاهين. . . من منطقة أربد إلى نابلس، ومن عمان إلى القدس. تصورت أن تلك التحركات لم تكن تشير إلى استعدادات للهجوم، ولكنها كانت مجرد استعدادات لاعتداء من جانبنا. كان من المستحيل ألا يتصوروا أن قصف قبية، إن لم يكن يعنى خطة محسوبة تهدف إلى شن الحرب، فعلى الأقل يعنى الرغبة فى بدء حرب كنتيجة للعملية. قال «فاتى» إن وفقا لما جاء فى إذاعة رام الله، تم انتشال ٥٦ جثة من تحت الانقاض». (١٧ أكتوبر ١٩٥٣، ٤٤ ـ ٤٥)

«فى الساعة الثالثة بعد الظهر، جاء كل من راسل (القائم بالأعمال الأمريكى) وميلتون فرايد (المستشار الأمريكى). . . كان وجه راسل عابسًا. كانت قبية (فى الأجواء). . . قلت إننى لن أقول أى شىء لتبرير الهجوم على قبية، ولكن يجب أن أحذر من استخراج تلك العملية من سلسلة الأحداث، ووجهت اللوم إلى الوضع المنفلت، وإلى عجز الأردن أو افتقارها للشعور الودى من جانبها. من تلك

النقطة، بدأت أهاجم السياسة الأمريكية كأحد العوامل التى أسهمت فى تشجيع العرب وعزل إسرائيل. . . ونددت بخطأ الفكرة (الأمريكية) بأننا نريد الحرب، وأن كل أفعالنا فى الجنوب وفى الشمال موجهة، حصريًا، من أجل إثارة الحرب. . . سأل راسل. . إن كنا سندين قبية. قلت إننى لن أستطيع أن أجيب. . . كاتريبل (سالمون) [الملحق العسكرى الإسرائيلى فى لندن] تقدم بفكرة (تضليل): عملية قبية سوف تجذب كل انتباه العالم، إلا إذا اخترعنا عملية أخرى مثيرة». (١٧ أكتوبر ١٩٥٣، ٤٥)

«[فى اجتماع الحكومة] نددت بعملية قبية التى كشفتنا أمام العالم كله كعصابة من مصاصى الدماء، قادرة على ارتكاب مذابح على نطاق واسع بغض النظر، فيما يبدو، عن إن كانت تلك الأفعال ستقودنا إلى الحرب. وحذرت من أن تلك البقعة سوف تلصق بنا ولن يمكننا تنظيفها لسنوات طويلة مقبلة. . . وتم اتخاذ قرار بإصدار بيان عن قبية، وأن بن جوريون [الذى عاد من عطلته بهذه المناسبة] هو الذى سيكتب البيان. ولقد أصررت على أن ينطوى البيان على تعبير الأسف. أصر بن جوريون على استبعاد أى مسئولية على الجيش (انظر ملحق رقم ١): قرر السكان المدنيون فى منطقة الحدود، والذين اشتعل غضبهم بسبب عمليات القتل المتكررة، أخذ العدالة بأيديهم. ففى النهاية [قال] المستوطنات عند الحدود تغص بالسلاح والمستوطنون كانوا جنودًا. . . قلت إن لا أحد فى العالم سيصدق مثل تلك القصة، ونحن سنكشف كذبنا. ولكننى لم أستطع أن أطلب جديًا أن يؤكد البيان بشكل واضح مسئولية الجيش لأن ذلك كان سيجعل من المستحيل إدانة الفعل، وفى النهاية سوف نضطر إلى تأييد هذه المجزرة البشعة». (١٨ اكتوبر ١٩٥٣، ٥١)[٣]

بالنسبة لشاريت أيضًا، لم يكن من الممكن المساس بالجيش ولكن، لماذا يجب لوم الجيش بينما القرار اتخذ على المستوى السياسى؟ وبالرغم من ذلك، ظهرت تفصيلة ذات معنى. من الواضح أن أمن سكان الحدود الإسرائيلية كان سيتعرض للخطر الشديد إن عزا إليهم مسئولية حمام الدم، مثل ذلك الذى وقع فى قبية. كان هناك نية استفزازية فى تشجيع تصاعد عمليات الانتقام والانتقام المضاد، مثلما كان لابتسامة لافون، عندما حاول شاريت إقناعه بحماقة العلاقات فيما يخص أهدافهم المعلنة. وفى الحقيقة، كانت السياسة الانتقامية متجهة، من البداية، إلى ناحية أخرى: فكلما تزايد التوتر فى المنطقة، كلما أدى ذلك إلى إحباط الشعوب العربية، وزعزعة استقرار النظم العربية، وكلما زادت الضغوط من أجل ترحيل معسكرات اللاجئين الفلسطينيين من المناطق القريبة من الحدود، إلى داخل العالم العربى ـ كلما كان ذلك أفضل من أجل الإعداد للحرب التالية. فى غضون هذا الوقت، يمكن الاستمرار فى تدريب الجيش. فى ١٩ أكتوبر عقدت الحكومة اجتماعا، حيث:

«تحدث بن جوريون لمدة ساعتين ونصف الساعة عن استعدادات الجيش من أجل الدورة الثانية... قدم أرقامًا مفصلة عن نمو القوة العسكرية فى الدول العربية، والتى (قال) إنها سوف تصل إلى ذروتها فى عام ١٩٥٦». (١٩ أكتوبر ١٩٥٣، ٥٤).

لم يكن ذلك مجرد تنبوء بالمستقبل. فقد كان ذلك يعنى أن إسرائيل سوف تشن حربًا خلال تلك الفترة. أضاف شاريت قائلاً:

«بينما كنت استمع... فكرت... إن علينا مواجهة الخطر بوسائل غير عسكرية: اقترح حلولاً جريئة ومحددة لمشكلة اللاجئين عبر دفع تعويضات، وتحسين علاقتنا مع القوى [العالمية]، والسعى بشكل حثيث للوصول إلى تفاهم مع مصر».

ذلك، بلا شك، لم يكن ما تسعى إليه المؤسسة الأمنية الإسرائيلية. فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٣، قدم الكولونيل ماتى بيليد محاضرة فى إسرائيل، أمام مجموعة

من الزعماء الصهاينة الأمريكيين. وكتب شاريت أن النتيجة التى تم استخلاصها من تلك المحاضرة كانت «واضحة بشكل خفى»:

«أولاً، يعتبر الجيش أن الحدود الحالية مع الأردن غير مقبولة على الإطلاق. ثانيًا، يعد الجيش لحرب من أجل احتلال سائر أراضى إسرائيل الغربية». (٤) (٢٦ أكتوبر ١٩٥٣، ٨١)

وبرغم صياغته بكلمات غاية فى اللطف، فإن الإدانة التى صدرت عن مجلس الأمن ضد إسرائيل بسبب الهجوم على قبية دفعت شاريت إلى أن يفرض حظرًا على العمليات الانتقامية إلا بتصريح خاص منه. وتوقفت العمليات الكبرى لفترة من الوقت، ولكن عمليات التغلغل الإسرائيلية البسيطة وغير المصرح بها، استمرت داخل الضفة الغربية وغزة، فى وقوع المزيد من الضحايا المدنيين. وعلى سبيل المثال، أدت عملية قتل طبيب أردنى على طريق بيت لحم ـ أريحا، والذى نشرته الصحف، إلى إثارة شكوك رئيس الوزراء. وعندما علم أن تلك العمليات هى عمليات إسرائيلية ازداد غضبه. ولقد كان لذلك، ولتحقيقات مماثلة أخرى، سببًا فى برودة العلاقات بين المؤسسة العسكرية ورئيس الوزراء. فى يناير عام ١٩٥٤، طلب ديان، وحصل على اجتماع مع كل وزراء ماباى:

«قدم موسى ديان خطة بعد خطة للقيام بـ(عملية مباشرة). كانت أولاها ما يجب القيام به من أجل كسر الحصار على مضيق إيلات بالقوة. كان يجب إرسال سفينة تحمل العلم الإسرائيلى، وإن قام المصريون بقصفها بالمدافع، فسوف تقصف الطائرات الإسرائيلية الموقع المصرى من الجو، أو [علينا] أن نغزو رأس النقب، أو نفتح الطريق من الجنوب إلى قطاع غزة، وشمالاً إلى الساحل. كان هناك صخب كبير. وسألته، هل تدرك أن ذلك يعنى الحرب مع مصر؟ رد، بالطبع». (٣١ يناير ١٩٥٤، ٣٣١).

ظلت دائمًا الحرب مع مصر الطموح الأكبر للمؤسسة الأمنية الإسرائيلية، ولكن الوقت لم يكن مواتيًا. فى ٢٥ فبراير، قام بن جوريون بنفسه بكبح نفاد صبر معاونيه عندما رفض اقتراح لافون بـ(البدء فورًا فى خطة فصل قطاع غزة عن مصر). كان الرجل العجوز مصرًّا على الالتزام بجدوله الزمنى. والآن، كتب شاريت فيما بعد يقول، «اقترح بن جوريون التركيز على التحرك ضد سوريا». (٢٧ فبراير ١٩٥٤، ٣٧٧).

* * *

obeikandl.com